## مذكرات رشدي العامل:

# حكايات طائر الفرات

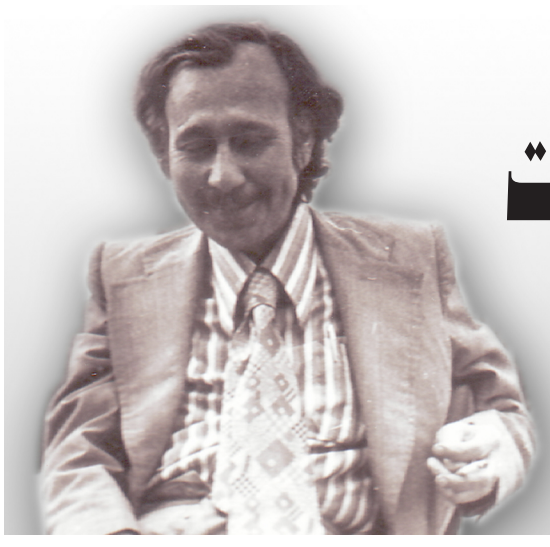



**هذه حكاية رشدي العامل تقدمها المدى فصولاً كتبها الشاعر الذي تألق وتألم كثيراً والصحفي الذي اعطى للفكر الانساني وللعراق دون منة، و(المدى) التي تنفرد بنشر مذكرات رشدي تجدها وثيقة ثقافية تأريخية تكشف عن فصول من حياة شاعر كبير ضاجة بالصدق والبراءة والقدرة على الاكتشاف.**

المدى الثقافي

(الحلقة الحادية عشر)





"-جائزة الخطابة الأولى على العراق.
-لقاء مع الأستاذ كامل الجادرجي .
-صداقات رشدي العامل .
-حسناء ديرالزور."

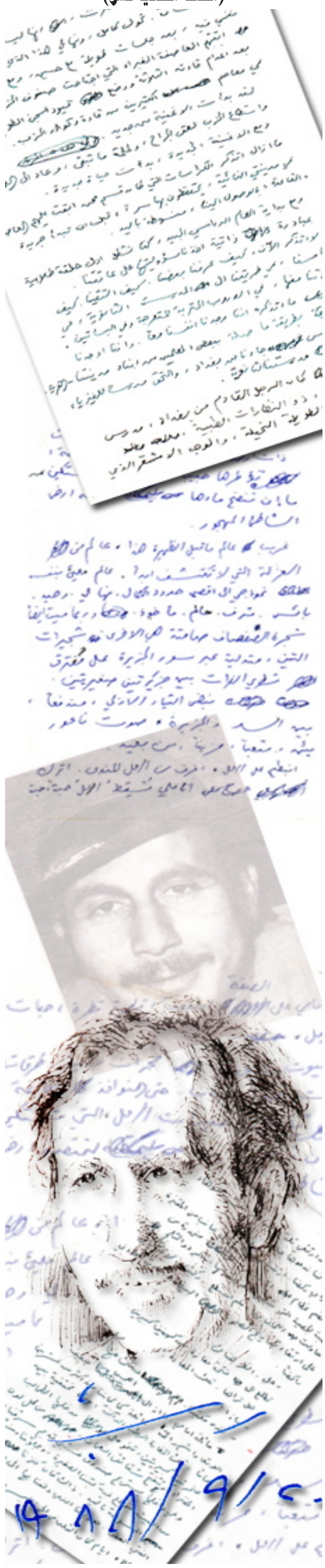

### مقبرة الاحياء في قاعة الملك فيصل

ولم استطع النوم في تلك الليلة. تخيلت العيون التي ستحدق بوجهي وانا انكفئ تلجلجاً، يملؤني الفشل المحزن، ثم.. وانا افوز، واسمع التصفيق، واعود الى عنه، لاهمس لأول ساقية طينية بين النواعير والمزارع : لقد فزت!

كانت ليلة بشعة رغم قهقهات حسين العامل واصدقائه

قال لي حسين ليلتها:

- تذكر رشدي ليست ثانوية عنه وحدها هي التي ستفوز.. انما تذكر: الحزب.

ما ابعد تلك الليالي. وما ابعد ذلك المساء الربيعي الجميل.

حدائق قاعة الملك فيصل تستقبل القادمين، وزير المعارف السيد خليل كنه، ينوب عن الوصي على العرش. قسم من الوزراء. مسؤولون كبار. اساتذة الكليات. مدعوون بارزون. اعضاء المجمع العلمي طلبة المعاهد العالية. مواطنون من عنة وراوة يجلسون بالانتظار عليهم اللعنة، انهم يحدقون في ابن بلدتهم، ذلك الفتى الضئيل، الذي تخفي ابتسامته قلقه، يخفي وجهه بشاعة ما ينتظره امام الميكرفون. افكر.. آه.. يازميلي القادم من النجف الاشرف، هل ستفوز، يا ابن مدارس اللغة والنحو والفقه والصرف والشعر.. حسناً ارجوك ان تترك لي الجائزة الثانية يا أبن البصرة، يا وريث الخليل وابي نواس وبشار و.. و.. واتيه، انا الولد القادم من اقصى فرات العراق، وريث الفلاحين، واصوات النواعير، وطحالب الجزر الخضراء، .. و..

ولكنني وريث ثورة لم يعرفها احد، ثورة ماتت في صدور الرجال، عندما غطت وجهها المتألق قبل قرون، ودفنت روحها في كهوف النسيان الابدي".

وبدأ العد العكسي: لقد اخذ المحكمون اماكنهم الى جانب المنصة: الاستاذ العلامة محمد بهجة الاثري. الدكتور العلامة مصطفى جواد.

وبدأ الاحتفال، الصمت يرين حتى على الزهور والفراشات، والعيون تحدق واساتذة التحكيم يهمسون لبعضهم. رباه أية مصيبة هذه، لماذا لم ابق في بلدتي النائية، وحيداً، مع الفرات، مع أمي وابي، مع نفسي. انها مكيدة. ماذا سأقول لهؤلاء العانيين والراويين، عليهم اللعنة اذا فشلت. افشل. لا. نعم. لا... و...

"الطالب رشدي العامل من ثانوية عنه"

انهض. دمية تتحرك. تتعثر. اقف امام الميكرفون. اللعنة الابصار اليّ احاول ان ابدأ "مقبرة الاحياء" .. يتحشرج صوتي. ارتجف. اتمم بالحرف الاول. افكر بالهرب.

اتذكر ثامر قاسم. لحظة واحدة، قلت له ذات يوم، عندما يتلجلج ولكي يتغلب على تلعثمه، كما تغلب عليها، مرة، انسان مثله، نصحه احد اصدقائه، ان يذهب يومياً ليلقي خطاباً امام حقل "للهانة" او "الخس" ثم يواجه الآخرين باعتبارهم رؤوس خس. لم تنفع الذكرى، في لحظة واحدة، فقط، لم يتبينها احد لم يحس بها احد، لم يعرفها احد، استنجدت باناملي، ضغطت على حافة المنصة الخشبية.. وانهمر السيل.

ان احداً ممن يقرأ هذه السطور لن يصدق، بانني حتى الان لا اصدق. ان من حضروا تلك الحفلة من بقي منهم- هل بقي احد؟- يستطيعون ان يسترجعوا غابة التصفيق المدوي الذي اعقب آخر كلمة من خطاب ذلك الفتى. وبعدها. عندما مشيت، سائراً في النوم اليقظ، الى مكاني، احسست بي مخدراً، لا اعي ، لا افقه، لا استطيع الرؤية. لقد وسمت تلك الحفلة خيالي والهبته، وتركت آثاراً مدمرة في انني استطيع ان اكون ملهماً.

### الاثري- خليل كنة- خالد الدرة

ولم يستغرق اعلان نتيجة المسابقة اكثر من دقائق، وقف بعدها الاستاذ الاثري ليعلن ان الجائزة الاولى، قد منحت بالاجماع، للطالب رشدي العامل، من ثانوية عنة للبنين. كما تستغرق عملية تقديم الهدايا، التي قدمها وزير المعارف، اكثر من دقائق، غادرت بعدها القاعة، بين يدي علبة ساعة ذهبية، وحولي حشد من ابناء عنه وراوه، الذين ارغموني على وضع الساعة في معصمي.

ويبدو ان الاستاذ خالد الدرة صاحب جريدة "الاوقات البغدادية" لم يكلف نفسه في تلك الليلة، السهر لكتابة افتتاحيته، فقد اكتفى بنشر خطابي- مقبرة الاحياء- في صدر الصفحة الاولى.

ولكن. سيظل في الذاكرة ابداً شخص استاذي مرتضى عبد الاله الشهابي.

فعندما غادرنا، بعد انتهاء الاحتفال، قاعة الملك فيصل، وتجولنا وثرثرنا، ظل الاستاذ مرتضى يحدق بي، وأساله:

- ها.. استاذ!

يدير رأسه ينظر إلي ثانية غير مصدق.

- ها استاذ؟

- رشدي. صحيح يعني. يعني الجائزة الاولى.

نتضاحك. اضحك. شعور بلامبالاة. لقد تصافيت مع العالم.

### الفوز ومرتضى الشهابي

في اليوم التالي كان ثمة من ينتظرنا في دار المعلمين العالية. صالح جواد الطعمة اياه. جلسنا. استاذي مرتضى الشهابي، حسين العامل، كاظم عمران، صديق حسين الابدي، صالح جواد الطعمة... طالبات حسناوات- هكذا خيل إلي-

لقد عقدت صداقة أبدية بيني وبين هذا الجو الذي ينتظرني بعد حين، ولقد بدوت – ياللخجل- كما لوكنت اشبه بالاسطورة. فتى صغيراً يأتي من مدينة منسية لينتزع من الاكف، وشاح الفوز في حلبة مسابقة، لم تفكر بها مدينته المنسية.

يا استاذ مرتضى

انت الآن، نائماً، في قبرك لا تتذكر ما كانت عليه جبهتك الواسعة عندما عدنا الى مدينتنا، الى قريتنا، الى ضلوع نواعيرنا المتعبة، وسواقينا المطحلبة. لقد اسرفت- سيدي- في منح الالقاب، لقد فرشت الزهور فوق الطحالب وآمنت بان مدينتنا الصغيرة، الفقيرة، المتعبة، مدينة الاسرار والصمت والفقر والثورة، حقل تأريخ عريق.

لا تتذكر، كيف علا جبينك، ونحن ندلف الى قريتنا المتواضعة الصبور، ولا كيف واجهت كل العيون ضاحكاً، ألقاً: لقد فزنا.

لقد قاسمني استاذي مرتضى عبد الاله الشهابي مرح وعيد الفوز.

اما ألاخرون، عائلتي ومعارفي، واهالي بلدتي عن، وبلدتي الاخرى راوة، فقد منحوني، بطيبة ومودة، اعتزازاً لا مثيل له، تعبيراً عن تلك النفوس البسيطة، كمكافأة غالية لابن قريتهم البعيدة المغمورة والمنسية الذي انتزع لمعهدهم العتيد (ثانوية عنة) الجائزة الاولى على ثانويات العراق.

اما في الثانوية نفسها، فقد تلقيت رسالة شكر، موقعة من المدير الاستاذ نامق نفسه، وبذلك طويت آخر ذكريات قرار الفصل الذي واجهته قبل شهور!

### الذكريات وتكوينات النفس الإنسانية

ان متابعة تلك الذكريات البعيدة تشبه ولوج غابة متشابكة الاشجار، تجري عند جذورها السواقي الصافية احياناً وتتناثر على ارضها الحفر والاشواك احياناً اخرى، والحديث عن غابة الذكريات تلك يظل يراودني، كما لو كان نجاوى خاصة، هي اشبه بطقوس عبادة خبيئة وراء استار النفس.

ومع ان هذه الذكريات بتفصيلاتها الدقيقة، وآفاقها العريضة، شكلت المؤثرات اللاحقة لتكويني المادي والفكري، الا انها لوحة عريضة، لا أجد ان من اليسير، فرض كل الوانها، على هذه الصفحات.

### وفد الى سوريا!

غير ان من الذكريات التي ماتزال تعيش في ذهني، سفرتي الاولى الى سوريا، فقد حدث ان تشكل وفد رسمي من بعض موظفي عنه، برئاسة قائممقام القضاء، مندوباً عن متصرف اللواء، لحل خلافات على الحدود بين افراد العشائر العراقية والسورية التي تتجاوز في تلك المنطقة. وهكذا رافقت أبي، مع قريبي الاثير حسين العامل.

وحللنا ضيوفاً على رئيس عشيرة "البومحل" الشيخ الشجاع المسن "عفتان الشرجي" في مضيفه الواسع الذي ينهض امام جدول كبير من ماء الفرات.

كانت تربطه علاقة وطيدة بجدي، ايام كان يأتي الى عنه، فيحل ضيفاً في ديواننا القديم، وامتدت العلاقة بأبي، بعد وفاة جدي.

كانت تروى عنه حكايات كثيرة، عن اقدامه وبسالته، ايام كانت الغزوات العشائرية هي القانون الوحيد، امام افراد العشائر الممتدة في تلك المنطقة.

### فتاة علي جواد

ما اتذكره، اضافة الى الوليمة الباذخة التي مد فيها الموائد الواسعة، والتي حضرها محافظ "دير الزور السورية" والتي اظهر فيها الشيخ عفتان سخاء وكرم العراقيين، امام ضيوفهم السوريين. ما اتذكره ايضاً دهشتي، وانا اقف مذهولاً، احدق في فتاة من عشائر الشيخ على ظهر حصان اصهب، بلا سرج، يرد الماء على ضفة الجدول الصافي. كانت بشرة وجهها السمراء النقية، واعتدال قامتها على ظهر الحصان، وعيونها السوداء الواسعة نموذجاً فذاً للجمال البدوي ألآسر.

لم اشعر بان الشيخ يرقبني، وانا اقف مشدوهاً امام تلك الصورة البهيجة الرائعة، الا عندما اقترب مني، ووضع كتفه على كتفي، وقال لي بلهجته البدوية، ذات المقاطع الواضحة الحادة، انني اذا استعطت ان اسحبها من الحصان وارميها ارضاً، فهي لي.

وبالطبع، فقد ملأني الخجل، وانا اسمع قهقهات الحاضرين وبينهم أبي. وماتزال تلك الفتاة البدوية، على حصانها وضفة الجدول، والاشجار الممتدة على جانبيه، محفورة في ذاكرتي، ترتبط عميقاً بالصحراء والخيول- التي احببتها جداً- والحياة الطليقة الطبيعية البسيطة، التي لا تعرف حدود الجدران ولا الاسوار.

وفي ذينك اليومين، اللذين قضيناهما في قضاء "البوكمال" السوري تعرفت الى اقاربي الذين هاجر آباؤهم او هاجروا هم، الى سوريا، واستضافتهم اول بلدة سورية على الحدود، وشقوا لهم، ولابنائهم طريق حياة جديدة، اوفر حظاً مما كانت تمنحه لهم حياتهم الاولى في مدينة عنه، وفي احدى هاتين الليلتين، تناولت حسين وانا، ولاول مرة، العرق الزحلاوي السوري ذا المذاق الطيب والرائحة اللاذعة!

واذا كان ذلك العام، قد بدا طيباً مليئاً، حافلاً بضروب شتى من النشاط السياسي والحياتي، فقد بدا صيفه مر المذاق. لقد ذقت مرارة فشل ممض، في الامتحان العام للدراسة الاعدادية، فشل القى بي فيها مهاوي جزع فادح، لم اجتزه، الا بعد ان قررت ان اغير فرعي من العلمي الى الادبي، وان اعمل جهدي على الانتقال الى الصف المنتهي للدراسة الاعدادية- في الفرع الادبي- بعد ان اجتاز امتحانات الدور الثاني.

كان حلماً يشبه الهوس، غير اني اقنعت أبي، وغادرت بلدتي، نهائياً هذه المرة، الى بغداد.

وخلال جهد شاق، ومتوسلاً بكل ما استطيع، حصلت على موافقة وزارة المعارف، بقبولي في الصف المنتهي في الاعدادية المركزية، أذا اجتزت امتحان الدور الثاني مع طلبة الصف الرابع المكملين. وطبعاً، فان مسؤولي وزارة المعارف، اخذوا بنظر الاعتبار، كوني الفائز الاول، في مسابقة الخطابة على ثانويات العراق. كان امامي شهر واحد فقط، ينبغي علي فيه، ان اقرأ واستوعب منهجاً لعام دراسي كامل.

وقد ساعدني، بعض الاصدقاء الذين تعرفت عليهم في العام الماضي، بواسطة صديق طفولتي، الشاعر غازي الكيلاني وكان من بينهم صديقي الحميم عادل ضياء محمود والصديق الكريم شفيق النجم.

### ذكريات الاعدادية

وعند بداية العام الدراسي الجديد، كنت طالباً في الصف المنتهي بمدرسة الاعدادية المركزية العتيدة، اشهر اعدادية في العراق يومذاك.

واذن، فقد بدأت مرحلة جديدة

ها انذا اقطع الجسر القديم- جسر الشهداء- اربع مرات في اليوم، صباحاً وظهراً، في طريقي الى ذلك المعهد الاثير، وعائداً منه، الى بيت عمتي ام نمير في محلة الشيخ بشار، بجانب الكرخ، حيث بيوت العانيين والراويين والسامرائيين والتكارته، وحيث تمتد المقاهي القديمة الشهيرة، على ضفة دجلة بمواجهة مباني الحكومة (القشلة) ووزارة الدفاع والمدرسة المستنصرية وسوق السراي.

وفي تلك الايام الذاهبة، التقيت بالطالب وجدي شوكت سري، الذي حكم عليه فيما بعد بالسجن، وامضى سنوات فيه، مع اخيه عبد الجبار شوكت سري والذي التقيته بعد اعوام، في مقر اتحاد الطلبة العراقي العام بعد ثورة الرابع عشر من تموز ,١٩٥٨

في تلك الايام ايضاً، تعرفت لاول مرة على المرحوم عبد المجيد الونداوي، رئيس تحرير جريدة الاهالي، الناطقة باسم الحزب الوطني الديمقراطي، وهو لقاء مثير، ظللت اضحك منه طويلاً، انا وعبد المجيد، بعد ان توثقت علاقتنا، وامتدت قوية، مستمرة منعمة بالعمل المشترك سنوات طويلة، حتى غاب وجهه الى الابد، صحفيا مناضلاً، في قسم الشؤون السياسية بجريدة الحزب الشيوعي المركزية "طريق الشعب".

### لقاء مع كامل الجادرجي

كنت قد كلفت، بايصال مذكرة سياسية، تحمل تواقيع عدد كبير من المواطنين، لنشرها في جريدة "الاهالي" ولا اتذكر موضوع المذكرة الان ودلفت الى مقر الحزب الوطني الديمقراطي، الذي يضم مكاتب الجريدة ايضاً، وكان بناء قديما مجاوراً لمبنى مجلس النواب يفصله عن مديتنا شارع ضيق يفضي الى نادي الضباط ومديرية الشرطة العامة.

سألت عن رئيس التحرير، في مدخل بناية الحزب القديمة المتواضعة، ودلفت الى سرداب في آخر المبنى، حييت الاستاذ الونداوي ناولته المذكرة، فلم يفعل اكثر من ضمها الى اوراق مكدسة امامه وعندما سألته اذا كانت ستنشر في العدد القادم لجريدة الأهالي، لم يزد انه اخبرني انهم سيقررون هذا فيما بعد، وانها ستجد طريقها للنشر اذا كانت تستحق، وعندما يأتي دورها.

شعرت بالغضب يتصاعد الى رأسي، فها انذا اتلقى رداً بمثل هذا البرود وعدم الاكتراث – كما خيل الي حينذاك –وصعب علي تجرع هذه الاهانة!.. انا الذي يحمل مثل هذه المذكرة التي لا ادري لم اعتبرتها خطيرة وتأريخية. وسرعان ما وجدت نفسي في باحة الدار اسأل عن غرفة رئيس الحزب الاستاذ كامل الجادرجي، ثم وانا ارتقي الدرج القديم، وادلف الى غرفته اتذكره جالساً وراء مكتبه، غارقاً في القراءة، وبين شفتيه سيجارة حييته وبدأت اشرح له بحرارة، مقابلة رئيس التحرير لي كنت مندفعاً ولا ريب بطاقة الفتوة وحيويتها، عندما خلع الاستاذ الجادرجي نظارته، وابتسم وهو يدعوني الى الجلوس، وقدم لي سيجارة من علبة "كرافن أي" اعتذرت بادب فبادرني ملاطفاً:

- ها –سيجارة برجوازية.. لذلك ترفضها اليس كذلك؟ ابتسمت خجلاً، وانا اخبره باني لا ادخن.

المهم ان الاستاذ كامل وفي اول لقاء اشعرني بالثقة المطلقة والارتياح العميق، كما اوحى الي بثقة غير محدودة برئيس تحرير جريدة حزبه، واعتماده الكلي على احكامه وحيويته. وطمأنني بان الاستاذ عبد المجيد ابعد الناس عن ايذاء مشاعر الاخرين، وانه شخص ودود وطيب، وان مظهره الخارجي المتحفظ، لا ينم عن حقيقة شخصيته الطليقة، المتفتحة المتعاطفة، وابتسم من جديد وهو يكمل:

- خصوصاً تعاطفه معكم.

- معنا؟

سألته ، فقهقه بخفوت.

- نعم.. "انتم الشيوعيون".

كانت مقابلة كريمة من سياسي بارز يحتل مركزاً مؤثراً في مجموع الحركة الوطنية، ويحظى باحترام الجميع، لشاب صغير يراوح في الصف المنتهي من الدراسة الاعدادية وقد كان سروري مضاعفاً في اليوم التالي، عندما قرأت تنويها بارزاً ووافياً بالمذكرة التي اوصلتها الى جريدة الاهالي، والتي بدأت معها صداقة حميمة وطيدة مع الاستاذ الونداوي، ومشاركة فعالة في النشاط السياسي والادبي والصحفي في السنوات اللاحقة، وحتى رحيله المفاجئ المحزن. انها ذكريات لا تنسى، ساعود اليها كثيراً فيما بعد.

ومن الصداقات الطيبة التي توفرت لي خلال دراستي بالاعدادية المركزية، تلك العلاقة التي خلقتها زمالة الدراسة مع الطالب كريم محمود شنتاف، والتي وثقها طريقنا اليومي المشترك من جانب الكرخ، حيث يسكن كلانا، الى المدرسة عبر جسر الشهداء.

كان كريم في بدء نشاطه السياسي كاحد البعثيين القلائل في مدرستنا. وكان يبدو لي شاباً ذكياً متحمساً، لايخلو من تعصب لمبادئه، وكنت في الجانب الاخر، ابدو له انا الاخر، متعصباً لمبادئي الماركسية، وقد ظللنا فترة طويلة، نقطع الطريق الطويل من بيوتنا القديمة المتواضعة، الى مدرستنا، في نقاش لايكاد ينتهي حتى يبدأ، كان كل منا يطمح ان يكسب زميله الى خندقه، دون جدوى غير اننا احتفظنا خلف كل حدة نقاشاتنا وتبايننا وتعصبنا بروح عالية من المودة ومن التقدير لبعضنا وقد انقطعت علاقتنا عندما فرقت الحياة بين مصيرينا.